

جوانب

# من الحضارة الإسلامية

الدكتور عبد الرحمن علي الحاجي

مكتبة الصحوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلد پنجم  
من بحضرة الاسلاميه



جولان  
من بحضارة الاسلام

الدكتور عبد الرحمن علي الحجري

مكتبة الصحوة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة الصحوة

النقرة - شارع بيروت - عمارة الزاحم - مقابل السنترال الجديد

ت : ٢٦١١٠٠٦ - ص.ب : ٣١٢٢ الرمز 32032

# الله عز وجل

إلى من حنا عليَّ ورباني  
وتعب لأجلي ورعاني  
وما ملكت يده اعطاني  
وارخص لي كل غال وفداني

إنه أبي العزيز الغالي  
أحبني ملء قلبه وجوارحه  
وتابع مشيتي بأشواقه وعواطفه  
وكنتم فخره وعمره

بررتك فما كافيتك ، فاغفر يا رب تقصيري ، وارحمه واجزه  
عني بالاحسان ، واجمعني به في بحبوحة الجنان .

## فهرس

٧	مقدمة
١١	أولا - العلاقات الدولية في الاسلام وحضارته
٤٢	ثانياً - الجانب العلمي والثقافي
٥٣	ثالثاً - الجانب القضائي
٦٥	المراجع
٦٩	قائمة بآثار المؤلف

## مقدمة

الحضارة الاسلامية إحدى ثمار العقيدة الاسلامية ومن معطيات الاسلام ، وهي ميدان متوحد متفرد واسع رائع ثري ندي مزدحم بالنشاط السمع النقي البديع البهي ، مشرق بالنور مزدان بالخير ، تعلو ولا يعلى عليها ، ذات سمات ومواصفات متفردة وخصائص مميزة ومقومات تسمو بها شجرة باسقة .

تركت هذه الحضارة الاسلامية في نتاجها - خلال مراحلها - ظواهر وامارات ، وحدثت بين نتائج هذه الشجرة وما بذرتة خلال القرون في بلدان عالم الاسلام الواسع ؛ بقيت تعطي ثمارها حتى يوم ضعف المسلمون وقل تمسكهم فاهملوا رعاية الشجرة .

وليس من المنهجية الموضوعية ولا الأمانة العلمية دراسة هذه الأمور بشكل ترائي خبراً لكان واثراً لناظر ؛ لان العقيدة الحية حين يتم الأخذ بها تبدو كتيار متصل لا يتوقف ، ولا تقوم حضارة رفيعة إنسانية كريمة إلا بهذه العقيدة . وما عرفت الدنيا - وهي لا تعرف - الانسان المتحرر المتحضر بغيرها ، وإلا فالضياع في الدنيا والهلاك في الآخرة ، اعاذنا الله ونجانا منه . لذا يتوجب على العقل الأخذ بها معرفة بمكانة الانسان وإدراكاً لواجبه وهدفه .



ويجب تناول الحضارة الإسلامية - بجانبها : العلمي المتعدد  
والعملي المتنوع - ودراستها على أساس من العقيدة الإسلامية  
ونائجها ، ففي ظلها أينعت وبصفتها الربانية قامت وافصحت .  
فكانت واحدة متوحدة شاملة واضحة بصفتها ، إسلامية لا قومية  
فيها ، وإنسانية لا وطنية تحدها . فهي ترتبط بالله وتستمد من  
شرعه ، واليه لا إلى الطين تؤول ، وانتاجها والتأليف فيه - مع  
المظاهر الأخرى - يعبر عن ذلك قوياً بيناً .

لم يعرف التأليف قومية بل ميدانه العالم الإسلامي كله ،  
سواء في التراجم العامة أو الطبقات العلمية ؛ إلا إذا اقتضت على بلد  
أو مدينة بعينها ، وفي هذه الحالة يترجم للذين يدخلونها من المسلمين  
( من أهل العلم أو طلابه ) الذين ارتادوها للزيارة أو التجارة أو العلم  
دراسة وتديساً ، ولكل نشاط آخر بعين الإطار . فالذاهب من  
مكان لآخر في أي من بقاع العالم الإسلامي يدرس في غير بلده ويتولى  
المناصب فيه . وهذه علامة التوحد في الوجهة والفكرة والتكوين  
وكلها تقوم على التوحيد . والانتقال سهل لا يشعر صاحبه خلاله  
بغربة ، فيتولى أحواله ويمارس أعماله كأنه في مكان نشأته ، يرفعه  
فضله وصلاحه وتقواه ، ويعطيه علمه ، يعيش في أي مكان منها معزراً  
مكرماً محبوباً موصولاً لأنه مسلم . وهذه هي الوحدة الصادقة  
القوية وعداها زيف خادع وسراب زائل .

الحضارة الاسلامية وحدها تقوم على التوحيد والايمان بالله  
وكتبه واليوم الآخر، وتتمثل الاخلاق وتنتهج الوضوح والصدق (١).  
وهي امور انسلخت منها الحضارات الأخرى فتعرت من الفضائل  
- التي لا تقوم بغير هاتيك المقومات - وغدت منها مفلسة .  
واستمداداً من ذلك فان الحضارة الاسلامية تتحصن بالوحدة  
والتوحد ، وتتسم بالكمال والشمول والدوق والأناقة ، وتستعلي  
بالألقة والمحبة والانسجام والوثام والطهر والنظافة والصدق والقوة ،  
وتزهو بالتحرر والحركة والانطلاق الاجتماعي الخير في وجهته ،  
يقودها الى الله التزام بطاعته واخذ بشريعته .

ولا بد ان يتم - في دراسة الحضارة الاسلامية - بيان نتائجها  
والاطلاع عليها بجوانبها كافة واظهار وجوب وامكانية اعادتها او  
تكرار تجربتها الفالحة المشروط بالعودة الى ظل العقيدة الاسلامية ،  
على ان يكتب ذلك كله بأسلوب وعبارات اسلامية معبرة عن المعاني  
مكونة وعاء طبيعياً لها لا مقحماً عليها .

وبجانب كل انواع النقص العلمي والتشويه لدى بعض الكتاب  
والباحثين - جهلاً او اساءة - فقد تم لديهم تناول دراسة الحضارة  
الاسلامية في جوانب محددة وبطريقة معينة دون غيرها .

---

(١) انظر : من روائع حضارتنا ، السباعي : ٣٠ وبمعدها .

ويجري في هذا البحث اجمالاً تناول بعض الجوانب المهمة  
المفصلة من الحضارة الاسلامية وذلك في اطارها العام و برسم هيكل  
كلي لاعطاء صورة حقيقية تبين طبيعتها ولونها عموماً .

اولاً : الجانب الدبلوماسي ( العلاقات الدولية في الاسلام  
وحضارته ) .

ثانياً : الجانب العلمي والثقافي .

ثالثاً : الجانب القضائي .



## أولاً: العلاقات الدولية في الإسلام ومضارته

اهتم الإسلام كثيراً باحترام العهود والمواثيق والالتزام بها ووضع لذلك أصولاً وقواعد • والوفاء بهذه العهود والمواثيق — مثل أشياء آخر ضمن الدائرة الاسلامية — جزء من العقيدة الاسلامية ، يظل الالتزام بها قائماً — مهما كانت الظروف — حتى ولو أضر تطبيقها بمصلحة معينة أو أعاق منفعة خاصة • ومن هنا كان التلازم بين النص والتطبيق ، بل دل الثاني على صدق الأخذ بالأول وجديته في نفس صاحبه وأهله •

لم يكن العالم يعرف أو يفهم — قبل الاسلام وخارجه على الدوام — الخلق العالي وحسن التعامل في السلم والحرب ، غير بقايا من أديان الله السابقة متناثرة مشوهة في اكثرها • فجاء بها الاسلام قولاً وفعلاً ، التزم بذلك المسلمون التزاماً مثالياً ، علا كل اعتبار وسما فوق كافة النوازع النفسية ، قدمه المسلمون في كل مكان وزمان — وهم أولى بالقدوة — لغيرهم ؛ في وقت غدا

الاعتداء والنهب وقتل المغلوب لدى الكثير - قبل مجيء النور  
وخارج عالمه بعده - دستوراً معترفاً به ، حتى بعدما رأوا مثل  
الخير العملية لم يزد لهم ذلك إلا افتراساً واتهاًباً ووحشية  
وجناً وصغاراً •

بل ان من الدارسين الاوربيين من دافع عن هذه الوحشية  
- بعد ما أسس الاسلام المثل العملية - معتبرين إياها دستوراً ،  
ومنهم من افتخر بهذه الوحشية <sup>(١)</sup> • جرى ذلك حين التعرض  
لأحداث بشعة في عديد من بلدان العالم الاسلامي منها الأندلس  
في مدينة برْشتر <sup>(٢)</sup> ( ٤٥٦ هـ ) وحين عاث الطاغية القمبيطور  
في مدينة بكنسية <sup>(٣)</sup> ( ٤٨٧ هـ ) •

وهذا دليل على أن المثل العليا لا تكون إلا بالاسلام ولا تسود  
بغير اعتناقه ، ولا ضمان لها بغير الالتزام الايماني والخوف من  
الله والحب فيه والتصديق بدعوته •

---

(١) التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة :  
٣٦٩ - ٣٧٠ ، ٣٧٤ •

(٢) التاريخ الاندلسي : ٣٥٩ - ٣٦٦ •

(٣) التاريخ الاندلسي : ٣٦٩ - ٣٨٧ •

ولقد احتوى التاريخ الاسلامي الكثير من العهود والمواثيق، سواء كانت بين الكيان الاسلامي ( دار الاسلام ) وغيره ( دار الحرب ) من الدول المجاورة أو البعيدة ، أو مع مجموعات غير اسلامية داخل الكيان الاسلامي •

ومن أوائل المناشط الاسلامية في شؤون العلاقات الدولية الدبلوماسية ما حدث خلال هجرة بعض المسلمين - في العهد المكي - إلى الحبشة في السنة السابعة قبل الهجرة ( السادسة للبعثة النبوية الشريفة ) • فجرت مكاتبات بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبين النجاشي ملك الحبشة الذي كانت علاقته مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والمسلمين حسنة ، رغم عدم وجود كيان اسلامي مستقل وواضح سياسياً •

وحين هاجر المسلمون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وأقاموا أول دولة اسلامية في العالم ، أنشأوا عهوداً ومواثيق بين الجماعة المسلمة والجماعات الأخرى مثل اليهود والمشركين من أهل المدينة (١) •

---

(١) راجع : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة .

وكان صلح الحديبية واحداً من هذه المعاهدات التي جرت في العهد النبوي الشريف في السنة السادسة للهجرة بين المسلمين ومشركي مكة - التي ما زالت في قبضة الشرك - بزعامة قريش . وكان رئيس مفاوضي قريش سهيل بن عمرو الذي أصبح فيما بعد من خيار المسلمين ودعاة الاسلام واستشهد في معركة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة للهجرة (١) .

إننا نلاحظ في معاهدة ( الحديبية ) الأهمية التي جعلها الاسلام للمواثيق والعهود والالتزام بها واحترام الكلمة حتى غير المكتوبة . احتوت معاهدة صلح الحديبية على عدة فقرات منها : « أنه من أتى محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ( صلى الله عليه وسلم ) لم يردوه عليه » (٢) .

وما أن تمت المفاوضات في صلح الحديبية ، وقبل الانتهاء من كتابة العهد ، حتى ألقى أبو جندل - ابن كبير مفاوضي قريش

---

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب : ٦٧٢/٢ ، ١٠٨٤/٣ .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية : ٥٨ ، كذلك : جامع الاصول في احاديث الرسول : ٢٩١/٨ .

سهيل بن عمرو - بنفسه أمام الرسول الكريم ( صلى الله عليه وسلم ) وصحابته ، يرسف في قيوده • كان مسلماً مستضعفاً لم يستطع الهجرة ، حبسه أبوه وقيده في البيت، يلقي ألوان العذاب • ووجد في غياب أبيه فرصة للاتحاق بالمسلمين • لكن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) رده على أبيه قائلاً : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً واعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » (١) •

أما الوفاء بالعهد فذلك في الاسلام واضح ومؤكد ، والأمثلة وفيرة وهي فريدة تسمو على الانانية وتلتزم بأعلى المثل، فالالتزام بها أساس في كافة الاتفاقيات والعهود • كما أكد الاسلام احترام عروض السلم وتبليتها ما لم تكن فيها مخالفة للشرع واضرار بمصلحة الاسلام وأهله •

وقد كان وفاء المسلمين بالعهد وهم في موقف القوة والقدرة وليس في موقف الضعف ، وهنا تبرز أهمية هذا الوفاء • فنرى

---

(١) السيرة النبوية : ٣-٤/٣١٨ . كذلك: امتاع الاسماع: ٢٩٥/١ .



— مثلاً — أن الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الثالث ( الناصر لدين الله ) عقد معاهدة سنة ٣٢٥ هـ ( ٩٣٧ م ) مع بعض دول اسبانيا النصرانية ( الشمالية ) ثم نقضت هذه المعاهدة واعتدي على حدود الدولة الاسلامية في الاندلس ، فجهز الخليفة جيشاً قاده بنفسه إلى الشمال لمواجهة هذه التحرشات ، وكان بإمكانه سحق المعتدين الذين لما رأوا هذه القوة ومدى اصرار الخليفة فضلوا العودة إلى المعاهدة ، فاكتمى الناصر بذلك<sup>(١)</sup> . وحين حضرت سفارة من الشمال لطلب السلم استجاب الناصر لرغباتهم .

يجب الاسلام ويؤيد كل عهد يدعو إلى الخير والمصالحة والسلام ما دام مخلصاً . ويستمر مفعول الالتزام بالعهد في كل الحالات من غير تقديم المبررات ، لأن الاسلام ارتفع بالمسلم والدولة المسلمة عن أن تهبط إلى مستوى الغدر ونقض العهد الذي هو من صفات الكفرة ، وارتقى بالبشرية إلى آفاق رحبة من الصدق والاستقامة والرفعة وعدم تنكب هذا الطريق طمعاً بالغلبة ، فظهرها من هذا الخلق هدفاً ووسيلة ، على ضوء ما يوحيه

---

(١) راجع اندلسيات : ٧٥/٢ .

كتاب الله • فتكون هذه الأخلاق النبيلة مستمدة من شرع الله متجهة إلى مرضاته سائرة على صراطه • فلا يجوز للدولة المسلمة إعلان الحرب على أحد له معها عهد أو اتفاق، وليس لها العذر بإعلان الحرب عليه أو مباغتته إلا في حالة يظهر فيها العذر منهم، ولكن بعد أن يكون الطرف الآخر على علم بالحالة الجديدة؛ تنبؤ بها الدولة الإسلامية، وغير ذلك ممنوع في الشريعة الإسلامية » **« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فِيمَا يَتَفَقَّهُنَّ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَبَهُمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ بَدَّ كُرُون ٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨ »** (١)

فالعلاقات في الاسلام تقوم على الصدق والوضوح وإعطاء الفرصة للعدو دون مراوغة • وليس مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وأساليب البراعة في اللعب والخروج من كل قيد حين تلوح فائدة، وطرائق تبرير الأخطاء وتزويق السقطات وتزوير الحقائق؛ إلا

(١) سورة الانفال : الآيات ٥٥ - ٥٨ .

حليفاً للشرك والكفر والنفاق • فأهله حلساء هذه الخلق الذي  
اعتمدته السياسات والأساليب غير الاسلامية في العصر الحاضر  
— والغابر — واعتبروا ذلك شجاعة وبراعة ؛ وما هو إلا خلقية  
جاهلية حاربها الاسلام وغرس مكانها أخلاقه النزيهة النظيفة وجعلها  
عقيدة؛ إذ أن طابع الخلق الاسلامي الطهر والانصاف حتى مع العدو •  
وصفة التعامل الاسلامي — في السلم والحرب — حسن معاملة  
وسماح انسانية ورفق حنون ووفاء بالعهد والتزام بالكلمة  
وارتفاع لخلق طاهر تظيف في آفاق رحبة رسمتها شريعة الله  
فاجتذبت الناس — من كل قوم وجنس ودين — إلى دين الله  
الخالد ، فدخلوه أفواجا وأصبحوا في الله إخواناً » وَأَلْفَ بَيْنَ  
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ  
إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١)

وكل هذه المثل العليا لا توجد لها أي حضارة مادية مهما  
حازت من التقدم الصناعي والتكديس الاتاجي والكشف العلمي،  
بل كل تلك الأمور تتحول فيها إلى أداة تدمير للانسان وخراب

---

(١) سورة الانفال : الآية ٦٣ .

للعمران مالم ترس السفينة في شاطئ الأمان القائم على شريعة الله ،  
فتكون عندها فقط أداة سماحة وتقدم وسلام ؛ ويتحقق هذا حين  
يقود الاسلام ركب البشرية مرة أخرى •

ولدينا أمثلة عجيبة الروعة نادرة المثال في تاريخ العلاقات  
في كل حال وذات ألوان حتى تجاه غير المسلمين الذين فضلوا  
حكم المسلمين على أبناء دينهم وبلدهم • فحين وصل الجيش  
الاسلامي إلى وادي الأردن بقيادة أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن  
الجراح كتب أهالي تلك البلاد إلى المسلمين يقولون : « يا معشر  
المسلمين أتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أتم  
أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ؛ ولكنهم  
قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا »<sup>(١)</sup> •

إن أساس العلاقات الدبلوماسية في الاسلام السعي للسلم  
النظيف الشريف المكين الأمين • وحين يمارس الاسلام حرباً فلاجل  
السلم ونشر دعوته الخيرة وليس للاسترقاق أو للكسب وفتح  
الأسواق وجمع الغنائم واستعباد الناس وفرض مذهب معين عليهم؛

---

(١) فتوح الشام : ١١١ •

أو أية مصلحة أخرى كما تفعل المبادئ الوضعية وراء البحار وخلف السهوب ، والبراري والصحاري ، والجبال والوديان ، حتى عمّ شرها أماكن كثيرة ؛ وأرهقت الناس وملأت الأرض طغياناً وكفراً على حساب المثل والقيم التي غرسها الاسلام ورعاها المسلمون وحرصوا دوماً على تطبيقها ، وما صور التمييز العنصري وغيره عنا بغائبة . فالاسلام يكره الحرب ، لكنه يمارسها يوم يكون لا مفر منها وقاية وعلاجاً ، حماية ودفاعاً ودعوة إلهية . يقول الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » (١) .

تقام الحرب في الاسلام — بجانب الحماية ورد الاعتداء — من أجل نشر كلمة الله ؛ لا للإجبار عليها بل من أجل فتح الطريق أمامها وإزالة العوائق من طريقها والعقبات التي تقف حاجزاً دون إبلاغها للناس الذين يترك لهم الخيار خلال الفتوحات الاسلامية .

---

(١) جامع الاصول : ٥٦٨/٢ . كذلك رياض الصالحين : ٣٧ ( حديث رقم : ٥٣ ) .

وأي قتال لا يهدف إلى إعلاء كلمة الله فهو ليس في سبيل الله  
ويرفضه الاسلام ، ولقد قال الله تعالى في قرآنه الكريم :  
« \* وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ » (١) • « \* إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ  
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ أَلْحَنَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ  
حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا  
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٩١﴾ » (٢)

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة روايات :  
أن اعرابياً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول  
الله ، الرجل يقاتل للمغنم ويقاتل ليذكر ويقاتل ليرى مكانه ويقاتل  
حمية ، فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (٣) •

وكل حرب تقام لغير هذا لا يؤيدها الاسلام ويعتبرها عدواناً،

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٣) جامع الأصول : ٥٨١/٢ ، كذلك رياض الصالحين : ٧ ( حديث

رقم : ٨ ) •

لأنه يحث على إقامة السلم • يوضح ذلك قول الله تعالى في القرآن

الكريم : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا

خُطُوَاتِ الشَّيْطٰنِ ۚ إِنَّهُ لَكُرْءُوٓمٍ مِّبٍ ١١ ﴾ (١) ، وقوله جل ذكره :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٢ ﴾ (٢)

ومن أعراف المسلمين في الحرب مقاتلة المحاربين في الميدان ،

فهم لا يجهزون على جريح ولا يثلون بقتيل ولا يسيئون إلى

أسير ولا يتعرضون لمسالمة ولا يلحقون فاراً إذ ليس الهدف

القضاء عليه بل إزالة خطره • لقد منع الاسلام مقاتلة غير المحاربين،

ومنع الاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال والرهبان ، ومنع

القيام بأعمال الأذى والنهب والسلب وحرق الزروع وقطع

الأشجار رغم وجود حالة الحرب (٣) •

جاء الاسلام بهذه الأمور ابتداءً وسموا ، وبهذا المستوى

أصالة وجدية، بصدق ووضوح، وعفة وشرف، وتفوق كبير بعيد

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦١ .

(٣) جامع الأصول : ٢ / ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٦٥١ .

لا يدرك، في زمن لم تكن هذه الأمور فيه معروفة وما كان تصورهما قائماً فضلاً عن تطبيقها ، وهي ما تزال كذلك حتى اليوم مع اختلاف في الجزئيات وفي الوسائل ، لكن العالم الاسلامي ومن احتك به شاهدها عياناً وتنعم بها .



أما السفارات والسفراء ففي الاسلام لذلك مكانه ، وأعرافه ورسومه راتقة فائقة سامية . فسفراء الدول الأجنبية في الدولة الاسلامية يتمتعون بكل ما يعرف بالحصانة الدبلوماسية وبشكل حقيقي غير مزور ولا مديح ، بل نالوا كل كرم وضيافة وحسن استقبال وغير ذلك من الخدمات الأخرى بلا امتحان ، وتهيأت لهم كل أسباب الراحة ، بل وكان يرافقهم من يسهر على راحتهم وأمورهم ، ومترجم — إن دعت الحاجة — رغم ما قد تفتقده من هذه الأمور الوفود الاسلامية التي تزور تلك الدول . في حين حدث لدى دول أخرى ذات هيئة سياسية في مختلف العصور أنها كانت تقوم ليس فقط بحرمان وفود المسلمين من هذه المزايا بل أحياناً الاعتداء على السفراء المسلمين ، مع الالتواء في



أداء حوائجهم ، وسوء معاملتهم ؛ لدرجة وصلوا معها إلى حد قتل السفير المسلم دونما سبب غير الحقد والكراهية . فحين حمل الحارث بن عمير الأزدي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى عاصمة الغساسنة إحدى ولايات الروم « فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدم فضربت عنقه صبراً »<sup>(١)</sup> وبسبب ذلك كانت معركة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة . ولقد أهين عبد الله بن حذافة السهمي سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى امبراطور فارس كسرى ابرويز ليدعوه إلى الاسلام فمزق الكتاب ؛ لكن الله تعالى مزق ملكه وقتل يديه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حين بلغه ما فعل هذا الكسرى بالكتاب وحامله دعا عليه بقوله : « اللهم مزق ملكه »<sup>(٢)</sup> فكان ، وتلك إحدى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

إن صيانة وإكرام الوفود القادمة إلى البلاد الإسلامية صفة

---

(١) الاستيعاب : ٢٩٧/١ - ٢٩٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ٢٥٩/١ - ٢٦٠ ، كذلك : مجموعة الوثائق السياسية ١٠٩ - ١١٢ .

واضحة خلال مراحل التاريخ يوم كانت الكلمة للإسلام ، وكان ذلك يتم في كل الظروف والمناسبات ، والأمثلة متضافرة تمتلئ بها صفحات التاريخ • ومن أمثلة ما جرى في القرون التالية ما حدث حين جاء وفد من المانيا ارسله امبراطورها اوتو الأول ، فقدم هذا الوفد إلى قرطبة أيام الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ = ٩١٢ - ٩٦١ م ) وكان رئيس الوفد الالماني الراهب يوحنا الغرزيبي وأنزل الوفد في مكان قريب من إحدى الكنائس في قرطبة (١) •

كل هذا كان يتم دون فرض أو اشتراك أو تبادل ومن غير توفر قانون أو عرف دولي ولكنها الصبغة الاسلامية وخلقها الرفيع •

وكم أغنت مثل هذه العهود والمواثيق لدى غير المسلمين في الماضي والحاضر ! التي اتخذت أحياناً سترأ خفيفاً لإخفاء خطة ذات أهداف عدوانية استغلالية •

ألم يتم في عصر الحضارة الحديثة ذات الحتميات والتقدميات

---

(١) اندلسيات : ٤٩/١ •

والديمقراطيات — أن يستدعى وفد للتفاوض من قبل جهات دولية متحضرة لتتسلف به طائرته أو مركبته أو يعتقل ؟ وكم من عهود نقضت واستغل ضعف المعاهدين ؛ مثلما جرى في الماضي لدى غير المسلمين في تعاملهم مع المسلمين الذين أحسنوا إليهم وسبقت لهم معهم بيض الأيدي ؟ ويكفي في ذلك اطلاع سريع على الحروب الصليبية في أي من جناحي العالم الاسلامي شرقيه وغربيه (١) .

لقد كان الاهتمام في العالم الاسلامي بالعهود والوفود ظاهراً في كل أمر يتعلق بهذا الموضوع ؛ حتى لقد أنشئت دور تسكنها هذه الوفود الزائرة ، وقد توفرت فيها كل أسباب الراحة ، زيادة إلى تعيين أشخاص يصاحبونها في شؤونها . كما كان الاستقبال يتم خلال طريقهم في المدن التي يمرون بها (٢) . وكان السفير المسلم — بجانب تقواه — عالي الثقافة عموماً ومعروفاً بعلمه وفقهه ، وإن كان الفقه شاملاً لكل المسلمين ذكوراً وإناثاً ، وهذا هو أساس الثقافة في المجتمع المسلم . وقد يكون السفير أحد العلماء المرموقين المعروفين بعمقهم واتساجهم الغزير .

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٣٤٣ ، ٣٦١ ، ٥٥٣ .

(٢) راجع : أندلسيات : ٤٢/١ — ٥٣ .

إن دراسة الجانب الدبلوماسي أمر صعب ويحتاج إلى تتبع وتحقيق وتمحيص للمواقف والحقائق ، وعودة إلى المراجع والمخطوطات الأولية والحديثة والإحاطة بعدة لغات • ولهذه الدراسة الدبلوماسية جانبان هما : الجانب الفني والجانب التاريخي (١) •

يتعلق الجانب الفني بالأصول والأعراف والرسوم التي قامت عليها أساليب الوفود والسفارات والتفاوض بين الجانب الإسلامي وبين الآخرين • وهذا الجانب أصعب ربما من بعض النواحي— من الجانب التاريخي الذي هو بدوره يثير الصعوبات المتعددة •

قامت العلاقات عند المسلمين على أسس الإسلام الواضحة الصادقة ، فهي إحدى ثمراته • ولقد توفرت عن الجانب الدبلوماسي نصوص ودراسات ، ولكن يبقى الجانب الفني بحاجة أشد إلى الجهد والانتاج • ويفتقر الجانب التاريخي كذلك إلى النصوص الكافية وتكتفه صعوبة الاستنتاج أحياناً •

فمثلاً نعرف في الجانب التاريخي أخباراً عن معاهدات

---

(١) راجع مثلاً : اندلسيات : ٤٢/١ - ٥٣ •

قامت بين المسلمين وبين غيرهم لم تصل إلينا نصوصها • وتواجه الباحث في هذه الحالة صعوبة تعيقه عن اعطاء صورة سليمة أقرب إلى الواقع • وهناك احداث ذكرت بصورة سريعة موجزة : من ذلك سفارة قدمت من البابا أيام عبد الرحمن الناصر إلى قرطبة فاستقبلها الخليفة أحسن استقبال ، لكننا لا نعرف شيئاً عن أهداف هذه السفارة التي جاءت من أجلها غير طلب الصداقة • وورد ذكر هذه السفارة في عمر ابن خلدون حين الحديث عن هذا الخليفة الاندلسي ، ولم يورد عنها غير أقل من سطر وهو : « ووصل بعده ( رسول برشلونة ) رسول صاحب رومة يطلب المودة فأجيب » (١) •

ولدينا في الدبلوماسية نص فريد غير كامل ومحير عن هذا الرجل الذي كان يتولى مهمة سفارية ولا نعرف غير لقبه ، وهو نص وحيد ذكره ابن القوطية في كتابه « تاريخ افتتاح الاندلس » حين الحديث عن الأمير عبد الرحمن الاوسط ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) : « وذلك ان رجلاً يعرف بالقصبي كانت له وجهة وكان يوفده

---

(١) المعبر : ٣١١/٤ .

عبد الرحمن بن الحكم الى قارلته ملك الافرنجة والى ملك الروم»<sup>(١)</sup> . يشير بذلك الى رجل كانت له دراية وخبرة وِمران بالعمل الدبلوماسي ، حيث تعود عبد الرحمن الاوسط ان يوليه سفارات خارج الاندلس لدى عدد من الدول مثل الافرنجة والروم . ولم يذكر ابن القوطية اسم ملوك الافرنجة أو الروم الذين قام هذا النشاط في حكمهم ، وكل ذلك يحتاج الى تتبع وتحديد . وان مصطلح الروم والافرنج لم يكن ذا مدلول واضح ومحدد دوماً تحديداً متعارفاً عليه أو في وضع ثابت في كل العصور وعند كل الكتاب المسلمين ، وقد يكون كل من المصطلحين ( الافرنجة والروم ) عاما يطلق على شعوب أوروبا ودولها كلها أو بعضها<sup>(٢)</sup> . وتواجه البحث في هذا الموضوع صعوبات متنوعة حيث لا نجد عنها تفصيلات في مصادر أخرى مما هو متوفر لدينا . وابن القوطية مثلاً في هذا النص لم يعطنا الاسم

---

(١) راجع هذا الموضوع في رسالة الدكتوراه ( العلاقات الدبلوماسية ) ١٣١ - ١٣٢ للمؤلف .

(٢) المرجع السابق : ١١٩ ، ٢٤٧ ، ٢٧٢ ، التاريخ الاندلسي : ١٨٤ ، ١٨٦ .

الكامل للسفير واكتفى باللقب من غير ان يحدد الدولة أو الملك الذي واجهه هذا السفير •

وهناك مشكلة قلة المعلومات عن هذه الامور ليس في الاندلس فقط ولكن بالنسبة للجهة الاخرى التي تعاملت مع الاندلس أو غيره احيانا من بلدان العالم الاسلامي • ومثل هذه الاخبار التي لدينا عنها نص وحيد كثيرة ؛ ومن هذا النوع من النصوص كذلك ما يروييه ابن خلدون حيث يقول : « ثم جاء رسول ملك ... وآخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كئلده »<sup>(١)</sup> • فكم يستطيع الباحث ان يجد من المعلومات في مثل هذا الخبر أو كيف يمكن رسم صورة لهذا النشاط السفاري وأمثاله • وهذا النص شبيه بما ذكره ابن خلدون عن رسول « آخر من ملك الفرنجة وراء المغرب وهو يومئذ أّقوّه »<sup>(٢)</sup> • والتحقيق في مثل هذا الموضوع يقتضي الاطلاع على التاريخ الاندلسي والاوربي وغيره الذي كان طرفا آخر في هذا النشاط ، مع معرفة ببعض اللغات •

---

(١) العلاقات الدبلوماسية : ١٣٣ •

(٢) العلاقات الدبلوماسية : ١٣٤ •

ولدينا نصوص أخرى قد ترد في مصدر واحد ولا ذكر لها في غيره الا ما ندر لدرجة لا يتضح أحيانا مرسل الخطاب أو الذين تبادلوا الرسائل . من ذلك نص المقرئ في نفح الطيب حين الحديث عن عبد الرحمن الداخل ( ١٣٨ - ١٧٢ هـ ) الذي عقدت بينه وبين ملك الفرنج ( قارؤه = شارلمان ) معاهدة سلم . فغير واضح من الذي اخذ المبادرة ولا نعرف تفصيلات اخرى عن هذا النشاط المتبادل، وعبارته « وخاطب عبد الرحمن قارؤه » ملك الافرنج وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة» (١) .

ويبدو ان للمؤرخين المسلمين، والاندلسيين خاصة، مؤلفات استوفت - ولو الى حد - مثل هذه الأمور ولكن لم تصل الينا لتحل هذه المشكلات وغيرها . ولكن فيما يتعلق بالعديد من الامور الدبلوماسية ، لاسيما في الجانب التاريخي فان المقرئ

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٢٢٦ ، ولعل هذا النص نقله المقرئ في نفحه ( نفح الطيب ١/ ٣٣٠ - ٣٣١ ) من ابن حيان القرطبي ( ٤٦٩ هـ ) مؤرخ الأندلس .



يتحفنا بما يتعلق بهذا الموضوع في الأندلس وينقل أصولاً تاريخية فقدت ويذكر نصوصاً مطولة عما يتعلق بهذه الأخبار • وقد ينقل — عن ابن حيان الذي اهتم بهذا الموضوع وغيره (١) — وصفاً الاحتفالات الدبلوماسية بشكل جيد مع تفاصيل أخرى بالامكان ان تعطي صورة واضحة ، وهذا الوصف الذي كان يعطيه لمثل هذه المناسبات يرد تحت الجانب الاول : الفني •

ولقد عاش المجتمع الاسلامي بكل عصوره وأحواله موضوع العهود وحسن التعامل مع الآخرين على اساس خلقي صريح وصادق • وكل ذلك مرتبط بالعقيدة الاسلامية والخوف من الله تعالى • وترسخت هذه الصفة وغيرها حتى غدت وبدت اخلاقية أصيلة تميز بها المجتمع المسلم وجربها وأقر بها كل أولئك الذين تعاملوا مع المجتمع المسلم • وهي مثل غيرها صفة بديهية وأولية ملموسة ؛ فالوفاء بالعهد خلق اسلامي أصيل ، فكان الوفاء لهم سنة بها يلتزمون وعليها يحرصون •

بل لدينا من الامثلة الفذة في قوتها الفريدة في روعتها ،

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٢٦٧ •

وبعضها لا يخلو من طرافة ، وهي متكررة مألوقة لم تذهب  
الايام بإشرافها ولم تدرس لطول العهد بها •

لم يشهد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان وابوه  
( حُسَيْل ) بدرأ رغم وجودهما في المدينة المنورة ، وذلك انهما  
كانا مقبلين اليها فلقيهما كفار قريش واخذوهما ، فقالوا لهما :  
« انكم تريدون محمداً » فقالا : « ما نريد الا المدينة » فأخذوا  
العهد عليهما ان ينصرفا الى المدينة ولا يقاتلا مع رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ضد كفار قريش • فذهبا الى المدينة وأخبرا  
الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لهما : « نفي  
بعهدهم ونستعين الله عليهم »<sup>(١)</sup> • وهكذا أمضى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم العهد لقريش مع أنهم أعداء الله ورسوله ،  
والحرب معهم قائمة ، والمسلمون بحاجة ماسة لكل جندي ؛  
نظراً للتفاوت الكبير بين قوتي الطرفين ؛ وهم قادمون على معركة  
بدر التي تعتبر أول وقعة فاصلة بين الكفر والايمان !!  
ولقد روى مسلم هذا الخبر في صحيحه عن حذيفة بن

---

(١) سير اعلام النبلاء ، الذهبي : ٢٦٢/٢ •

اليمان قال : « ما منعني ان اشهد بدرأ الا أنني خرجت أنا وأبي حسيل ، فأخذنا كفار قريش ، قالوا : انكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريده ، ما نريد الا المدينة ، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لننصرفن الى المدينة ، ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر ، فقال : انصرفا ، بقي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم » (١) ومن غير شك أن هذا الالتزام لا يصدر إلا عن ينبوع إيماني وعقيدة راسخة في النفوس تعتبر الوفاء بالعهد جزءاً من تلك العقيدة والالتزام به عبادة لله سبحانه وتعالى . وقوة هذه الحادثة وأمثالها تغني كثيراً عن الشرح والبيان ، انه الوفاء المثالي الذي لا يكون الا بالاسلام ؛ فهذا خلق العقيدة وسلوك التقوى ومنهج الايمان . وهذه الأمور وأمثالها لا تكون بغير هذه العقيدة وشريعتها الربانية ، وذلك واضح مما نسمع ونرى .

ولقد أجارت — يوم فتح مكة — أم هانئ بنت أبي طالب ( ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ) رجلاً مشركاً هو

---

(١) مختصر صحيح مسلم : ٥٨/٢ ( رقم : ١١٢٥ ) ؛ جامع الاصول

الحارث بن هشام بن المغيرة وآمنته ، وأراد علي بن ابي طالب ( اخوها ) قتله ، فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « يا رسول الله زعم ابن أُمِّي علي انه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ( وآمنا من آمنت ) » (١) .

ولهذه الحادثة عند الحاكم النيسابوري ( ٤٠٥ هـ ) تمة وایضاح حيث يذكر ان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا لرجلين أجارتهما أم هانئ هما : الحارث بن هشام ( المذكور ) وعبد الله بن أبي ربيعة اللذين أخبرتهما بأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فمضيا باقين على شركهما ، ثم ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما جالسان في ناديهما متنضلين في الملا المزعفرة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا سبيل اليهما قد آمنهما » . وقال الحارث بن هشام : وجعلت أستحي ان يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم واذكر رؤيته إياي في كل موطن مع المشركين

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر : ٢٧٣/٦ .  
والزيادة من أبي داود ، جامع الأصول : ٦٥٤/٢ - ٦٥٥ .  
كذلك : سير اعلام النبلاء : ٢٢٨/٢ ؛ الاستيعاب : ٣٠٢/١ .

ثم اذكر بره ورحمته فألقاه وهو داخل المسجد فتلقاني بالبشر ،  
 ووقف حتى جئته فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق • فقال :  
 « الحمد لله الذي هداك ، ما كان مثلك يجهل الاسلام » • قال  
 الحارث : فوالله ما رأيت مثل الاسلام جهل<sup>(١)</sup> •

ولقد روى أبو داود عن ابي رافع قوله : ( بعثني قريش  
 الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأيت رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم أُلقي في قلبي الاسلام ، فقلت : يا رسول الله لا أرجع  
 اليهم أبداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اني لا أخيس  
 بالعهد ولا أحبس البرء ، ولكن ارجع ، فإن كان في  
 نفسك الذي في نفسك الآن فارجع » ، قال : فذهبت ، ثم اتيت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت<sup>(٢)</sup> • فأين هذا مما

---

(١) المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ٢٧٨/٣ . كذلك : حياة  
 الصحابة : ٢٦٩/١ - ٢٧٠ ؛ الاستيعاب : ٨٩٦/٣ . متنضلين :  
 مفتخرين ، الملاء : جمع ملاءة : نوع من الثياب . المزعفرة :  
 مصبوغة بالزعفران •

(٢) جامع الاصول : ٦٥٢/٢ . وابو رافع هذا هو : اسلم مولى  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قبطيا . الاستيعاب :  
 ١٦٥٦/٤ ؛ سير اعلام النبلاء : ٨/٢ . وهو ضرب ابا لهب

فعلته قريش وغيرها في معسكر الكفار والمشركين في كل تاريخهم وعلى اختلاف انتماءاتهم؟! في حين سار المسلمون دوماً على مثل الوفاء في كل الأحوال وعلى جميع المستويات: حكاماً ومحكومين ، جنداً وقادة، فاتحين معمرين لا طغاة متجبرين . والحوادث كثيرة وفيرة مملوءة بها كتب الاصول الاسلامية وامهاتها التي حفظت ووعت حقائق تاريخنا الاسلامي المشرق والتي يجب أن تكون منابع فهمنا للاسلام ودراساتنا وثقافتنا وكتاباتنا الاسلامية ، وقبل ذلك معرفتنا لعقيدتنا الاسلامية وفقهنا لاسلامنا ووعينا لشريعتنا

→

(أو بحضوره ) ضربة كانت فيها مقتله شر قتلة . الطبقات الكبرى ، ابن سعد : ٧٣/٤ ؛ انساب الاشراف ، البلاذري : ٤٧٧/١ . اسلم ابو رافع قبل بدر ولم يشهدا لانه كان في مكة ، ثم شهد احداً وما بعدها . الاستيعاب ، ٨٥/١ . اسلم قبل بدر وكان يكتم اسلامه مع العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقدم بكتاب قريش الى المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واطهر اسلامه ليقم بها فردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم . حلية الاولياء ، أبو نعيم : ١٨٣/١ - ١٨٤ ( رقم : ٣٣ ) . وبهذه المناسبة كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق الوارد اعلاه ، انظر : المستدرک : ٥٩٨/٣ .

لصياغة حياتنا على أساسها وحدها دوماً • ولا بد ان نعتبر ذلك ميزانا لنظرتنا ودراستنا ومواقفنا لكل ما يقع خارج هذه الدائرة •

ولقد كتب القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول له : **إِنْ عَبْدًا أَمِنْ أَهْلُ بَلَدٍ بِالْعِرَاقِ ، وَسَأَلَهُ رَأْيَهُ • فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : « إِنْ اللَّهَ عَظُمَ الْوَفَاءُ ، فَلَا تَكُونُوا أَوْفِيَاءَ حَتَّى تَفُوتُوا ؛ فَوَفُوا لَهُمْ وَانصَرَفُوا عَنْهُمْ »** (١) •

وذلك لأن كل شيء في الاسلام هو للتنفيذ والتطبيق وحقيقة الشريعة تظهر في سلوك أبنائها • وهذه الحادثة تشير إلى مقدار التضامن والتكافل والتوحد الحقيقي للمجتمع المسلم ؛ إذ أن إعطاء أمان من قبل عبد مسلم تقدم به لأهل بلد ؛ على المسلمين أن يفوا به **« فَاَلْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَائُهُمْ ، وَهُمْ يَدُ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ »** (٢) كما في الحديث الشريف •

---

(١) نقلا عن : في ظلال القرآن : ١٢٥/١ • وعن أمثلة أخرى من هذا النوع ، انظر مثلا : جامع الأصول : ٦٥٣/٢ ؛ السيرة النبوية ابن هشام : ٣ - ٣٥٤/٤ ؛ تاريخ الطبري : ٤٩٢/٣ - ٤٩٣ ؛ الكامل في التاريخ : ٥٤٩/٢ ، ٥٥٣ •

(٢) حديث شريف ، جامع الأصول : ٢٧/٨ •

فأين هذا من تصرفات غير المسلمين كافة ، في موضوع الالتزام بالعهود وخلق الوفاء وغيرها من الأمور الخلقية والفكرية والشعورية والانسانية ؛ فضلاً عن تكريم الاسلام للانسان في عقيدته وتصوره وضميره وعلاقاته ؟ إنه مختلف سموً وارتقاءً عن كل ما عداه هبوطاً وتدنياً ، وذلك يتضح بأدنى مقارنة في كل مستوى وفي أية حضارة •

ولقد مرت بعض الأمثلة عند غير المسلمين مع عدة أقوام وانتماءات وفي مناسبات متعددة ومواجهات متنوعة في السلم والحرب ؛ تمثل فيها عدم الالتزام بعهده ، وبدا نقض العهد الواضح المشين المخالف لأدنى مستويات الخلق الانساني مهما كان نوعه فضلاً عن مخالفته وبعده الكبير عن أي بقية ولو مشوهة من عقيدة أو دين ادعوا هم الانتماء إليه • ويذكر على سبيل المثال ما جرى في الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي حيث استعمل الصليبيون مع المسلمين كل ألوان الوحشية ضد كل الناس حتى غير المحاربين بل وضد النساء والشيوخ والأطفال ؛ معتبرين ذلك ديناً أو دفاعاً عن الدين — ودين الله من ذلك براء — وارتكبوا من



الشنائع والفظائع ماروى بعضه كتاب أوربيون • وكانت تصرفاتهم أحياناً - إن لم يكن دوماً - تعافها حتى الوحوش ؛ إذ ذبحوا المسلمين في المسجد وأقاموا المذابح في القدس من غير استثناء لأحد لسنّته أو لحاله ، ولم يقم بذلك بعض الجند فقط بل جميعهم وقادتهم وملوكهم في المقدمة • وإن ريكاردوس (قلب الأسد) قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم استسلموا إليه بعد ما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم لكنه استباحهم جميعاً ، وزاد في اقتراف أعمال القتل والسلب ضد المسلمين الآمنين وغير المقاتلين بل الكبار المسنين والأطفال غير البالغين<sup>(١)</sup> • وفي المغرب الاسلامي (الأندلس) ارتكبت الأعمال المماثلة لما جرى في المشرق وزيادة؛ رغم العهود والمعاهدات الموقعة والتي أكد توقيعها وأقسم عليها ؛ بل وأكدتها أعلى سلطات الدولة والكنيسة وأحياناً السلطة البابوية، ومع ذلك كان أول شيء عملوه هو نقض كل ذلك والاستهانة بأي خلق ومثل • والأمثلة كثيرة ومتكررة بل هي التي عرفناها عنهم دون غيرها ؛ وكأن ذلك أصبح هدفاً لهم يسعون إليه

---

(١) حضارة العرب ، لوبون .

ويحرصون على تحقيقه ويجهدون في الوصول إليه <sup>(١)</sup> ،  
وما محاكم التفتيش في الأندلس بسرّ •

ويستوي في ذلك غير المسلمين منذ تاريخ الاسلام الأول وحتى  
امتداده الملحوظ في جناحي العالم الاسلامي شرقيه وغربيه • ولقد رأينا  
سوء تصرف غير المسلمين حتى مع المسلمين الذين بادأوا الأقوام بحسن  
المعاملة ونظافة السيرة وطهر المسلك وهم في موقع الغلبة والقوة  
وذلك ديدنهم وليس عليهم بغريب ، فما رأوا من غير المسلمين  
إلا سوء المعاملة والخلف في الوعود وإخفار الذمة وخيسان العهود؛  
وهذا ديدن هؤلاء وهو ليس عليهم بغريب وكل منفق مما عنده  
ولكن أين الثرى من الثريا ؟ والله تعالى المثل الأعلى سبحانه الله  
رب العالمين •

---

(١) التاريخ الاندلسي : ٥٧٤ - ٥٧٨ •

## ثانيًا: الجانب العلمي والثقافي

كثر الانتاج الاسلامي واتسع في هذا الجانب المتعلق بالثقافة والمعرفة والعلوم • ولا تتعرض هذه السطور لدراسة فروع المعرفة وألوان الثقافة والانتاج العلمي ؛ وإنما تعتني ببعض جوانبه وظواهره ومعامله التي تقدم لنا صورة ، مهما كانت سريعة وعابرة ومختصرة ، فهي تفصح عن نوعية تلك الثقافة وتعدد ميادينها وسبر غورها واستجلاء آفاقها في شمول واسع ، وتبين مستواها وأصالتها ؛ مستندة في ذلك على أسس وقواعد نشأت في ذلك الجو العلمي الذي أوجده الاسلام وعاشه مجتمعه المسلم • وتمثل الثقافة الاسلامية والعلوم المتنوعة التي نمت عند المسلمين جانباً واسعاً شمل كل الميادين التي كانت معروفة ، شذبتها ووجهتها وتقدمت بها في منهجها الخير وطريقها الفاضل ثم أوجدت ميادين جديدة قدمت فيها ثمرة كبيرة • أما وجود بعض الانتاج الفج أو الهزيل فشاذ ودخيل ؛ وهو معروف بتهافته

وهو لا يمثل الثقافة الاسلامية الحققة عند المسلمين ولا يعطي اية صورة تمثل خط هذا الجانب لديهم فهو قد اقتحم عليهم مؤلفاتهم وحشر في كتبهم • ولكن هذا الانتاج الشاذ - للأسف - نراه يقوم أحياناً دون غيره في كثير من معاهد التعليم على أنه الصورة الحقيقية للانتاج الثقافي الاسلامي • بل إن هناك أفكاراً لا تنسجم مع الاتجاه الاسلامي وهي معروفة ولكنها وَجَدَت الاهتمام والعناية مع التضخيم فقلبت الحقائق وعكست المفاهيم ! فمثلاً ندرس شخصيات علمية وأدبية وآراء فلسفية معينة وجوانب علمية أو أفكاراً ليست هي أهم ما توفر في ذلك الميدان ولكنه شاذ ؛ فكان هناك اختيار في الجانب والموضوع واختيار في طريقة العرض صاحبه إهمال لجوانب وموضوعات وإخفاء لأسس ومقومات معينة هي التي صاغت تلك المعرفة ولولاها ما كانت ؛ فطمست لها صفات وغيبت منها سمات • ولا بد لأية دراسة علمية ، تتناول هذا الموضوع ، من

الحرص - بصورة رئيسية - على أمور منها :

١ - أن يدرس الجانب الثقافي ضمن الاطار الذي وجد

فيه والجو الذي أنبته وهياً له أسباب النمو والإثمار في تلك الظلال التي عاش فيها وأنتج ، وذلك هو الجو الذي هبأه الاسلام لمجتمعه فكان من ثماره عموم هذا الانتاج الثقافي . ولهذا السبب فلا تقتصر أصالة الثقافة الاسلامية على بلد اسلامي معين بل هي عامة في بلدان العالم الاسلامي بجناحيه ، ونجد لذلك الشواهد الكثيرة ، وهذا الوضع موفور في كل العصور .

وإن هؤلاء الذين أتجوا هذه العلوم لم يكونوا منعزلين عن الناس عاكفين على أوراقهم منصرفين للتأليف ؛ بل كانوا يتولون أعمالاً ويقومون بمهام لأنفسهم ولمجتمعهم ، يدرّسون ويشتركون في الأحداث ويخالطون الناس في شؤونهم الأخرى وهم منهم وإليهم قرييون .

وتملك الأمة الاسلامية وحضارتها عدداً وفيراً من الأعلام في كل ميدان من الرجال والنساء أثروا المكتبة الاسلامية . فأبو جعفر محمد بن جرير الطبري ( آمل ، طبرستان ، ٢٢٤ - بغداد ، شوال ٣١٠ هـ ) من العلماء المعروفين بكثرة التأليف ، وقد تصدى للتدريس ومارس أنواعاً أخرى من النشاط . وتذكر له المراجع

مؤلفات كثيرة ، يستغرق بعضها عدداً من الأجزاء • وقد اشتهر الطبري بتفسيره وتاريخه ، وله مؤلفات أخرى ذكرها الذين ترجموا له<sup>(١)</sup> •

كان علماء المسلمين يتغنون في عملهم العلمي — بكل ألوانه — وجه الله ورضاه ، وخدمة المسلمين • وهكذا يجب أن يكون المسلم في كل شؤونه وأعماله ، والأمثلة على ذلك متوافرة متكاثرة • من ذلك ما يروى عن العالم اللغوي «المذكور بالديانة والعفة والورع»<sup>(٢)</sup> أبي غالب المعروف بابن التياني ( ٤٣٦ هـ ) أنه صنف كتاباً جليلاً في مدينة مرسية بالأندلس ؛ ولما علم أميرها أبو الجيش مجاهد العامري أرسل إلى ابن التياني ألف دينار أندلسي مع كسوة على أن يزيد في الكتاب عبارة : « مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » لكن هذا العالم رد الدنانير والكسوة وقال :

« كتاب صنفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى اسم ملك ! هذا

---

(١) وفيات الأعيان : ١٩١/٤ •

(٢) المغرب في حلى المغرب : ١٦٦/١ •

والله مالا يكون أبداً»<sup>(١)</sup> . وبذلك زاد التبانى في عين مجاهد وعظم في صدور الناس .

ومن علماء المسلمين المكثرين في التأليف — وهم كثير — الحافظ شمس الدين الذهبي ( ٧٤٨ هـ ) الذي بلغت مؤلفاته قرابة المئة ، بعضها مطبوع ويقع في عشرين جزءاً . ومن هؤلاء ابن حزم الأندلسي ( ٤٥٦ هـ ) الذي أحصى ابنه مؤلفاته فبلغت أربعمئة مجلد<sup>(٢)</sup> فقد أكثرها . بل إن بعض المؤلفين وصلت مؤلفاتهم أو أجزاءها إلى خمسمئة بين صغير وكبير مثل القاضي الفقيه أبي المطرّف عبد الرحمن بن فطيس ( ٤٠٢ هـ )<sup>(٣)</sup> . كما أن بعض الكتب وصلت أجزاءها العشرات من ذلك « تفسير القرآن » تأليف الحافظ بقي بن مخلد ( ٢٧٦ هـ )<sup>(٤)</sup> . وقد وصف ابن حزم هذا التفسير « أنه لم يؤلف في الاسلام تفسير

---

(١) راجع : أضواء على التراث والحضارة .

(٢) أندلسيات : ١٢٢/١ .

(٣) الصلة ، ابن بشكوال : ٣١١ — ٣١٢ .

(٤) راجع : نفح الطيب ، المقرئ : ٤٧/٢ ، ٥١٨ .

مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره » (١) • ولكن للأسف لا نعرف لهذا المؤلف مكاناً • ومثل ذلك يقال في تفسير القاضي أبي بكر بن العربي الاشبيلي ( ٥٤٣ هـ ) المسمى « أنوار الفجر في تفسير القرآن » الذي يذكر أنه يقع في ثمانين جزءاً أو أكثر (٢) • علماً أن مؤلفات ابن العربي تزيد على الثلاثين •

إن مثل هذه الأخبار متوافرة ، حيث كانت العناية بالكتب كبيرة وعموم الناس يتبارون باقتنائها ، فكانت مصدر فخر • ومن فاته أن يؤلف أو يكتب لم يفته أن يكون صاحب مكتبة يزين بها داره ينفع بها نفسه وأهله ومجتمعه ، ولذلك كان العالم الاسلامي - ومنه الأندلس موضوع الشواهد - مزدهراً بالمكتبات الخاصة (٣) •

٢ - جعل الاسلام طلب العلم فرضاً وشجع الأخذ بأسبابه

---

(١) نفح الطيب ، المقرئ : ١٦٨/٣ •

(٢) نفح الطيب : ٣٥/٢ •

(٣) راجع : بحث الكتب والمكتبات في الاندلس ، المنشور في مجلة كلية الدراسات الاسلامية : ٣٧٠/٤ • وبعدها ( بغداد ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ) •



والسعي له بكل صورة نافعة ؛ فورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو مجباً ولا تكن الخامسة فتهلك »<sup>(١)</sup> . فأصبح العلم عند المسلمين — خلال العصور — وطلبه والعناية به والعمل على إشاعته والانتفاع به وتطبيقه سنة درجوا عليها بدافع من عقيدتهم — وهو جزء منها — وكان ذلك للانتفاع به وإقامة المجتمع القوي المتكامل . وأية ظاهرة غير هذه تعتبر شاذة وليست أصيلة ، وربما كانت نتيجة لظروف معينة أو نقولاً عن أمم أخرى واتباعاً لأسلوب غير مرغوب فيه . على حين نجد — لسبب وآخر — توفر الاهتمام حالياً بهذه الجوانب التي تعتبر جزئية أو غير ذات صلة وثقى بالانتاج الاسلامي ولا تمثل من الثقافة الاسلامية إلا ناحية فرعية أو زاوية ليست ذات نفع !! ولقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من كل « علم لا ينفع »<sup>(٢)</sup> .

---

(١) حديث شريف ، رواه الطبراني والبخاري ورجاله موثقون .

(٢) من حديث شريف ، انظر : جامع الاصول في احاديث الرسول ، ٣٥٥/٤ .

وبهذا تعتبر العلوم والمعارف التي تدرس في كثير من مناطق العالم الاسلامي حالياً جزئية ومشوهة • فالثقافة الاسلامية شاملة لكل الميادين ، ولدينا فيها انتاج تتمثل فيه الأصالة وأعلام يستازون بالعمق • ولقد وجد في هذه الحضارة الاسلامية أعلام يمكن أن نسميهم بالموسوعيين ، حيث كتب كل منهم في عدة ميادين وعرفوا بسعة الثقافة •

٣ - اتساع ظاهرة الثقافة في الحضارة الاسلامية قضية شديدة الوضوح لأنها شملت كل الناس • واعتنى المسلمون بالتأليف والترجمة وكان مستوى التأليف رفيعاً ونال التقدير والعناية وازدادت الرغبة في طلب العلم واتسعت ، لأنها فريضة المسلمين ، فلا يمكن أن تتصور وجود الجهل أو توفره حيث يكون الاسلام • ثم إن الذين يقودون المسلمين علماء يحرصون أن يتعلموا - وغداً ذلك اتجاهأ وأساساً قام عليه المجتمع الاسلامي - يقومون به تقرباً إلى الله ويسعون من أجله ، خدمة لدينه وللمجتمع • ولذلك وجدت في العالم الاسلامي - خلال عصوره - مميزات معينة للعلم والعلماء وكذلك للتربية

واهتماماتها وقدرها ، كما كان للثقافة والمؤسسات العلمية مكانها  
الواضح في هذا الجانب •

وليس يقصد بهذا الاتساع معرفة القراءة والكتابة ، فهذه  
أساسيات متوافرة ، ولا غرابة أن انعدمت أو كادت أمية القراءة  
والكتابة في بلدان العالم الاسلامي في أي مقدار منها خلال عصور  
الاسلام الزاهرة المشرقة • ولكن المهم شيوع المعرفة والعلم  
وشموله لكثرة كاثرة غالبية غامرة ودائرة على العلم والفقه وسعة  
الأفق والاهتمام به والتعرف عليه وعلى آفاقه الرحبة المضيئة •  
كما نجد كثرة من أهل العلم وأساتذته وأعلامه والعاملين فيه  
— تدريساً وتأليفاً ، بشمول وكثرة — لا نجدها في تاريخ أية أمة •  
واغتنت المكتبة الاسلامية غناءً يعز بلوغه ولا ينال قربه  
ولا تمكن مباراته ، وليس للاكتناز بل للبناء ونفع المجتمع  
والارتفاع به ، فكانت هناك رغبة غامرة متجددة لا تتوقف  
ولا تنضب في تلقي العلم وبذله ، بحرص شديد ، لأن هذا كله جزء  
من العقيدة الاسلامية وواجبات المسلم • وكم من عالم كان  
يدرس بدون أجر ، ابتغاء وجه الله تعالى ، ولدينا أخبار عن كثير

من العلماء كانوا يعملون عملاً يكون مورداً لمعيشتهم ولا يقومون بالتعليم كمصدر عيش لهم • ولقد ذكر أحد تلامذة العالم الفقيه أبي الوليد الباجي ( الأندلسي ٤٧٤ هـ ) أنه « كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المطرقة » (١) •

فامتألت وطفحت ربوع العالم الاسلامي بفيض غامر من الانتاج ، يسعى الناس له ، رحلة وسهراً وصبراً ، يتفردون به على الدوام ، لا يملون ولا يكلون وما يكادون يشبعون ، فهم منهومون ، كما جاء الوصف في الحديث الشريف على قائله الصلاة والسلام •

ومن جميل الظواهر في هذا الباب قوة وطرافة ، أن كل ذلك كان يجري والتعليم حر يقوم به الناس قبل الدولة ، والمدارس الرسمية قليلة • فعدا العلم — طلبه وتعليمه ورعايته — طبيعة وسمة أقامتها العقيدة الاسلامية ، وتلك واحدة من ثمارها • والمرجو أن تقوم دراسة تتولى كل ذلك بوضعها الطبيعي ، تقوم على الصدق والامانة والورع ، دقة واصالة ورؤية واقعية

---

(١) التاريخ الأندلسي : ٣٤٠ •

في جو الحق والحقيقة ، لتظهر خبايا هذا الأمر وخفاياه التي طالما  
عبثت بها أهواء الجهلة والمعرضين • وخير من يقوم بذلك  
المتخصصون الصابرون المؤمنون الذين يجدون في ذلك لذتهم  
ويعتبرون عملهم جهاداً في سبيل الله تعالى •

واستجلاء هذه المواصفات المتفردة في الحضارة الاسلامية  
بعد ذلك ليس صعباً ، والحق أن ذلك ملحوظ مركز ومغروس  
في بنية المجتمع المسلم وميزة له ولأتمته الاسلامية ، مهما كان رقيه  
المادي والعمراني — الذي ليس له القول الفصل فيه — والذي  
يسخر دوماً لخدمة هذا الدين ويسير في اطاره [ صبغة الله ومن  
أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون \* ] •

## ثالثاً: الجانب الفَضائي

القضاء أحد الجوانب المهمة والخطط الجميلة الجليلة في الحضارة الاسلامية وفي حياة المسلمين على الدوام ، وللأسف فقد جرى حصره وحصره ليتم الغاؤه وإنهاؤه من حياتهم ، وكان جانباً شاملاً متكامللاً وشمساً مشرقة وصباحاً مسفراً • ومع ذلك فلم ينل هذا الموضوع والى الآن حقه من البحث العلمي الجاد الذي يقوم على الدراسة الأصيلة المستندة إلى واقع تاريخه وحقائقه ، صورة عملية للتشريع ومنبثقة عنه •

وُجد القضاء منذ أوحى الله تعالى الاسلام إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل آياته الكريمة في قرآنه المجيد ، لاسيما حين غدت الدولة الاسلامية الأولى كياناً سياسياً واجتماعياً واضحاً بُعيد الهجرة النبوية الشريفة • وقام بالقضاء — مدة النبوة — الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم • وكان طبيعياً أن يفصل بين الناس في أمورهم على هدي القرآن الكريم وبما يوحيه الله تعالى

إليه • والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأساس المكين في هذا الأمر وغيره في الحياة الإسلامية خلال عصورها • وجرى اجتهاد المسلمين فيما يجدّ لهم ضمن هذا الإطار •

ولقد طفحت صفحات التاريخ الإسلامي بقضاة لهم اجتهاداتهم ومواقفهم القضائية ، وبدقتهم وتحريمهم للحق وشعورهم بالمسؤولية ، مع قابلية في الابداع وعبقريّة في الفهم وتمسك بالوسائل التي تصون الحق وتصدع به وتظهر حقيقة الأمر ، وهي لا تخشى في الله لومة لائم ولا قوة غاشم ولا بطش جائر ظالم •

وتهيأت للقضاء في عموم الدول والمجتمعات الإسلامية المكانة الجيدة والاحترام الفائق من قبل الجميع فخضعوا لحكمه ورضخوا لأمره مهما كانت مكاتبتهم ومناصبهم ، حتى رجال الدولة والسلطان<sup>(١)</sup> •

وللقاضي شروط معلومة ، ليس المستوى العلمي إلا واحداً

---

(١) انظر مثلاً للمؤلف : التاريخ الاندلسي : ٤٤٦ ، ٥٧٥ •

منها ، مع ورع القاضي وتقواه واستقامته وخضوعه للشرع وعدم  
الخوف في الحق بل الخضوع لله ، وذلك ما درج عليه القضاء من  
بداية نشأته ، وهي أمور مقدمة على غيرها في تولي هذا المنصب  
واشغال هذه المكانة .

ومن أوائل القضاة - أيام الراشدين - شريح بن حارث  
الكندي ( ٧٨ هـ ) ، الذي عمر مئة سنة أو يزيد وشغل القضاء في  
الكوفة نحو ٦٠ سنة : من سنة ١٨ هـ في خلافة عمر بن الخطاب  
حتى سنة ٧٧ هـ <sup>(١)</sup> أيام عبد الملك بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) .

ولدينا كتب خصصت حديثها عن القضاء والقضاة مثل :  
« الولاية والقضاة » لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري  
و « أخبار القضاة » لوكيع محمد بن خلف بن حيان ( ٣٠٦ هـ )  
و « قضاة قرطبة » للخشني ( ٣٦١ هـ ) و « المراقبة العليا فيمن  
يستحق القضاء والفتيا » لأبي الحسن النباهي الأندلسي ( ٧٩٣ هـ ) .  
علماً أن بعض كتب القضاء لا سيما الأندلسية منها تعتبر حتى الآن  
مفقودة كما هو الحال في كتب ذات موضوعات أخرى .

---

(١) العبر في خبر من غير ، الذهبي : ٨٩/١ .



ونلاحظ أن بعض مؤلفي هذه الكتب هم أنفسهم من القضاة وهذا يضيف بعداً آخر في مكانة هذه المصادر • ولدينا نقول من بعض ما فقد من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع • والأمل — إن شاء الله — أن يكشف شيء منها ، وهذه مسألة ذات أهمية إذ أن في العثور عليها إثراء لهذه الدراسة وأساساً لإنتاج جديد •

ومن بعض الكتب المفقودة المتعلقة بالقضاء عن الأندلس كتاب « انتخاب من أخبار القضاة » لابن حيان القرطبي (٤٦٩هـ) وكتاب عن القضاة لأبي عبد الملك بن عبد البر (٣٣٨هـ) وغيرها<sup>(١)</sup> •

وممن انتفع بهذه الكتب وغيرها فأوصل إلينا بعض هذه النصوص ابن سعيد الأندلسي (٦٨٥ هـ) في كتابه « المغرب في حلى المغرب » وابن الآبار (٦٥٨ هـ) في كتابه «الحلة السراء» •

ونجد دراسة عامة مفيدة في «مقدمة ابن خلدون» عن خطة القضاء وما يتبعها من خطط أخرى<sup>(٢)</sup> •

---

(١) راجع بحث : « القضاء ودراسته في الأندلس » في مجلة كلية الامام الأعظم ، العدد الأول : ١٣٩٢ هـ ( ١٩٧٢ م ) ، بغداد .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٧٣٤/٢ - ٧٣٧ .

وهناك - بجانب بعض المؤلفات عن القضاء والقضاة - أخبار متناثرة عن القضاء وتعتني كتب التراجم بالقضاة وأخبارهم، مثل : « الطبقات الكبرى » لابن سعد ( ٢٣٠ هـ ) و « المقتبس » في أخبار بلد الأندلس « لابن حيان القرطبي ( ٤٦٩ هـ ) و « الصلة » لابن شكوال الأندلسي ( ٥٧٨ هـ ) و « بغية الملتبس » لابن عميرة الضبي الأندلسي ( ٥٩٩ هـ ) و « التكملة لكتابي الموصول والصلة » لابن الآبار الأندلسي ( ٦٥٨ هـ ) و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ( ٦٨١ هـ ) و « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي ( ٧٤٨ هـ ) و « الوافي بالوفيات » للصفدي ( ٧٦٤ هـ ) و « فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب » لأبي العباس المقرئ التلمساني ( ١٠٤١ هـ ) • فهذه الكتب العامة وأمثالها تتحدث عن القضاة وغيرهم من الأعلام •

ولدينا ثبت طويل قيّم بأسماء القضاة ، لكن الأمر بحاجة إلى دراسة علمية جادة مستعدة للتتبع وتحمل العمل المضني • فموضوع القضاء في العالم الاسلامي ما زال بحاجة إلى عناية ودراسة • ومهما كانت المعلومات عنه قليلة ومتناثرة في عديد من

المصادر التي وصلتنا ففيها مادة تكفي - ولو إلى حد - لعرض الموضوع بشكل يتناسب وأهميته ، ولا بد - خلال دراسة هذا الموضوع بحثاً وتأليفاً - من ملاحظة اعتبارات عديدة ، منها :

١ - النظر إلى القضاء ضمن طبيعة المجتمع الاسلامي وعلى الأسس التي قام عليها وكانت سبباً في تلك الصناعة والمكانة التي وضع فيها ، وتجلية الصورة الكريمة التي رسمها خلال التاريخ وفي بلدان العالم الاسلامي كافة وفي كل الظروف •

٢ - أن تناول هذه الدراسة القضاء أصلاً قام عليه سلوك لمسه الناس •

٣ - الحديث عن رجال القضاء ومواقفهم وموقف المجتمع منه والمسؤولين • ولا بد من دراسة نماذج من القضاة واحوال التقاضي في مختلف العصور والديار الاسلامية المتعددة • وعلى سبيل المثال جرى ذكر القاضي شريح الكندي الذي تولى القضاء مدة ستين سنة في الكوفة ، ولهذا مدلول ذو اهمية يتوجب بيانها خلال تناول هذا الموضوع •

فدراسة القضاء اذاً يجب أن تقوم على أساس انه منهج

وشخصيات تشربت هذا المنهج وتحركت في ضوءه بدون تكلف ،  
اذ غدا ذلك لديها طبيعة رباها عليها هذا المنهج الاسلامي ، وعلى  
انه احداث مرتبطة بأصول الشريعة •

٤ - يتوجب على هذه الدراسة العناية بمهام اخرى تنبثق  
من القضاء وذات صلة أو علاقة به وان لم يكن يمارسها قاض  
تمثلت فيه كل شروط القضاء ، بل يمارسها من يكون كنائب عن  
القاضي أو ممثلاً له ؛ مثل : النظر في المظالم أو الاعمال التي  
يتولاها صاحب الشرطة أو الحسبة في مجال الامر بالمعروف  
والنهي عن المنكر وامور اخرى تتعلق بذلك •

٥ - ويقتضي بيان مكانة القضاء وامتيازه في كل جوانبه  
عن القضاء في الامم الاخرى ، في صدقه وأصالته وفي ارتباطه  
ونزاهته وفي اصوله وانسانيته وفي التزامه بالحق وتجرده له ،  
والسير في إطاره العام الذي لا يتعداه •

٦ - وحين دراستنا للقضاء سنلاحظ أموراً متعلقة بالمنهج  
ورجاله وطريقة اختيار القضاة وصفاتهم وسلوكهم وامثلة من  
حياتهم القضائية تسترعي الانتباه وتستحق الاهتمام •



يتمتع القضاء في الاسلام بالحصانة والاستقلال • ولا بد من ايضاح نقطة مهمة هي ان هذه الصفات كانت متوافرة في ظل كافة الظروف ؛ الأمر الذي يشير الى قوة خاصة في التشريع الاسلامي ومجتمعه ورجال القضاء أنفسهم ، تحفظ لهم استقلال القضاء ومكائنه حتى في تلك الظروف التي يكون فيها جوانب من الضعف أو شيء من التهاون لدى بعض المسؤولين أوقات الهبوط . ولقد كان القضاء دوما مستقلا وكان ذلك في بعض الاقطار أظهر ، وليس استقلاله ، سلطة كاملة فقط ، وانما الاستقلال في داخل سلطة القضاء • من ذلك ما يبدو في الاندلس ، حيث القضاء في الاقاليم والكور ؛ فكان القضاة يتمتعون باستقلال — الى أية درجة — عن السلطة القضائية الرئيسية التي يسمى رئيسها عادة بقاضي القضاة ويعرف في الاندلس بقاضي الجماعة بقرطبة • وهذا يفيد في معرفة سلطات قاضي الجماعة وان سلطانه القضائي المباشر محصور في قرطبة العاصمة ، وهذا لا يمنع ان تكون كلمته نافذة ولها تأثيرها في الاقاليم والكور الاندلسية •

٧ — ودراسة امثلة للقضاء مهمة وهي كثيرة جدا ، وان

كانت هذه الكثرة غير مستوفاة لدينا في المصادر التي وصلت الى أيدينا عبر القرون والاحداث ، لكنها لا تجعل الباحث مقعدا عن المتابعة والدراسة ، اذ لا يعدم ان يجد فيها العون لبناء دراسة شاملة ونافعة في هذا الموضوع ، وإن كانت لا تخلو من الثغرات •

ونجد في الاندلس — ولعله في غيرها ايضا — لغير المسلمين قضاءهم الخاص الذي يعودون اليه في الشؤون القضائية ، وهذا يجب ان تتعرض اليه الدراسة ايضا • ويشير هذا الأمر الى عدم تدخل المسلمين في شؤون الاقليات الاخرى الذين يحتكمون الى رجال منهم<sup>(١)</sup> ، وان كان هذا الأمر لا يمنع ان يكون للسلطة الاسلامية رأي في تعيين القضاة أو الاشراف العام أو بيان بعض المسائل ، من غير ان يكون هنالك اكراه أو تدخل في شؤونهم الخاصة •

وتوفرت عن القضاة في الاندلس — مثل غيرها — النماذج والامثلة الكثيرة ، وفي كتب التراجم — وقد مر ذكر بعضها — امثلة كثيرة • ونذكر على سبيل الاستشهاد بعض الاسماء :

---

(١) اندلسيات : ٢٥/٢ •

مندّر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ) قاضي الجماعة بقرطبة  
ايام الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر •

محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بأبي الوليد بن  
رشد (٥٢٠هـ) قاضي الجماعة بقرطبة ايام المرابطين ، وهو جد ابن  
رشد الفيلسوف (٥٩٥هـ) •

أبو بكر بن العربي ( ٥٤٣ هـ ) القاضي الاشيلي أيام  
المرابطين والموحدين •

هذه بعض صور القضاء في الاسلام واحواله ومتطلباته ،  
ندعو الله تعالى ان يخدم الدارسون هذا الجانب وغيره من  
الحضارة الاسلامية ويجري العمل على إعطائها حقها وتوفية  
قدرها ، في عين الوقت الذي تستجلي هذه الدراسة جوانب  
الحضارة الربانية الفريدة المشرقة وميادين الدراسات الأخرى  
فتجني ثماراً طيبة ينتجها هذا الدين الذي انزله الله رحمة للعالمين •  
وهذا من أهداف الدراسة لبعث حياة متجددة متحركة تعمل  
على احياء النفوس والمشاركة في البعث الاسلامي الكبير المرتقب

القريب بعون الله تعالى • الأمل كبير والرغبة متلهفة متطلعة  
والنفس مؤمنة والحياة مشرّابة ترنو في الأفق مهما أظلم الليل  
وادلهم أو طال الانتظار وتوالت الاخطار ؛ فوعده الله كائن فلا بد  
أن تنقشع الظلماء ، فيتنفس الصبح بلطف الله وحكمته وعدله  
ووعده ونعمته « والله متم نوره ولو كره الكافرون \* » •

وبذلك يتبدىء دولا ب الحياة بالحركة الخيرة الفعالة فيعطي  
الاسلام للبشرية — فيما يعطي في الدنيا والاخرة — حضارة من  
جديد ، ثمرة لقيام مجتمعه ودولته ؛ فترتفع ألوته ويوجد بالبر  
والخير في الدنيا ويورث النعيم في الآخرة عند الله « يوم لا ينفع  
مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم \* » •

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على  
رسوله الكريم •





الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	مبادئ لفهم التراث	محمد ابراهيم الشيباني
٢	المخطوطات العربية وأماكن وجودها	محمد ابراهيم الشيباني
٣	مخطوطات المنتظم وأماكن وجودها	محمد ابراهيم الشيباني
٤	وصايا ونصائح لطالب العلم	ابن الجوزي
٥	المؤمل في الرد الى الامر الاول	ابوشامة المقدس تحقيق مقبول
٦	زغل العلم	للذهبي تحقيق محمد العجمي
٧	متى يا شروق	مجموعة قصصية تأليف نوري الوتار
٨	تنظيم الأوقات في الاسلام	أحمد باقر العبد الله
٩	الفتن في الآثار والسنن	جزاع الشمري
١٠	نظرات في الفكر الماركسي	أحمد باقر العبد الله
١١	عذاب الدنيا	أحمد باقر العبد الله
١٢	المقاصد العامة للشريعة	الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق
١٣	أطفالنا والقرآن	الشيخ حمود الحطاب
١٤	قلم وفكر	عبد الله الخطيب
١٥	معرفة الخصال المفكرة للذنوب والمقدمة والمؤخرة	العسقلاني تحقيق جاسم الدوسري
١٦	انهم يهدمون الاسلام	ياسر عبد الله
١٧	شجاعة السلف	حاي سالم الحاي
١٨	دليل الطالب الى جامعات العالم	حسين عبد الجليل
١٩	القول المنعوت بتفصيل البسمة والقنوت	ناصر بن لازم
٢٠	تأملات في الصيام	حسين عبد الجليل
٢١	مجموعة قصصية - النساء في القرآن ١ - ١٠	عبد المنعم الهاشمي
٢٢	كيف تقرأ القرآن الكريم	محمود قاسم الشوم
٢٣	نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي	الدكتور عبد الرحمن الحجى
٢٤	جوانب من الحضارة الاسلامية	الدكتور عبد الرحمن علي الحجى
تحت الطبع		
١	الصحابي القائم الصائم عبدالله ابن عمرو بن العاص	تأليف د/ عبد المنعم نجم
٢	شجذ الأسننه في الدفاع عن السنة	تأليف د/ عبد المنعم نجم
٣	الحضارة الاسلامية	عبد الرحمن الحجى

## المراجع

- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء الاول .
- جامع الاصول في احاديث الرسول ، ابن الاثير ، طبعة دمشق ، تحقيق الارناؤوط ، الاجزاء : ٢ ، ٤ ، ٨ .
- رياض الصالحين ، النووي .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر ، الجزء الثاني .
- مختصر صحيح مسلم ، تحقيق الالباني ، الجزء الثاني .
- المستدرک ، الحاكم النيسابوري ، الجزء الثالث .
- الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، ابن عبد البر ، تحقيق البجاوي ، أربعة اجزاء .
- امتاع الاسماع ، المقرئزي ، الجزء الاول .
- اندلسيات ( ١ - ٢ ) ، للمؤلف .
- انساب الاشراف ، البلاذري ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الجزء الاول .
- التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ، للمؤلف .

- تاريخ فتوح الشام ، البلاذري
- تاريخ الطبري ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث .
- حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، طبعة دمشق ،  
الجزء الاول .
- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعير .
- حلية الاولياء ، أبو نعيم ، الجزء الاول .
- سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، الجزء الثاني .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، الجزء ٣ — ٤ .
- الصلة ، ابن بشكوال ، طبعة القاهرة .
- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، الجزء ١ — ٤ .
- العبر ، ابن خلدون ، الجزء الرابع .
- العبر ، الذهبي ، الجزء الاول .
- العلاقات الدبلوماسية بين الاندلس وأوروبا الغربية ( بالانجليزية ) ،  
للمؤلف .
- القضاء ودراسته في الاندلس ، بحث للمؤلف منشور في مجلة  
كلية الامام الاعظم ( بغداد ) ، العدد الاول .
- الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، الجزء الثاني .

- الكتب والمكتبات في الاندلس ، بحث للمؤلف منشور في مجلة  
كلية الدراسات الاسلامية ( بغداد ) ، العدد الرابع •
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ،  
جمع واعداد الدكتور محمد حميد الله •
- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الاندلسي ، تحقيق الدكتور  
شوقي ضيف ، الجزء الاول •
- مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ،  
الجزء الثاني •
- من روائع حضارتنا ، الدكتور مصطفى السباعي •
- نفح الطيب ، المقرئ ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، الاجزاء  
١ - ٣ •
- وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ،  
الجزء الرابع •



## للمؤلف

١ - تحقيق ودراسة لسفر من كتاب **المقتبیس فی اخبار بلد الأندلس** للمؤرخ الكبير ابن حیان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ): بيروت ، ١٩٦٥ . يتحدث هذا الجزء من **المقتبیس عن** خمس سنوات ( ٣٦٠ - ٣٦٤ هـ = ٩٧٠ - ٩٧٤ م ) من أيام الحكم الثاني ، المستنصر بالله ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ = ٩٦١ - ٩٧٦ م ) .

Critical edition of « AL-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS », by Ibn Hayyan ( d. 469 = 1076 ), Beirut, 1965. This volume, of « AL-MUQTABIS », descusses almost five years ( 360 - 4 = 970 - 4 ) of the Riegn of al - Hakam II ( 350 - 66 = 961 - 76 ).

٢ - تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوروبا من كتاب **المسالك والممالك** للجغرافي الأندلسي الكبير أبي عبيد البكري ( عبد الله بن عبد العزيز ، ٤٠٥ - ٤٨٧ هـ ) : ظهر هذا النص تحت عنوان **جغرافية الأندلس وأوروبا** ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ ( ١٩٦٨ م ) .

Critical edition of « THE GEOGKRAPHY OF AL - ANDALUS AND EUROPE », from the Book « AL - MASALIK WAL - MAMALIK », by Abu Ubayad al - Bakri ( d. 487 = 1094 ).

٣ - **أندلسيات : المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ ( ١٩٦٩ م ) ؛**  
المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ ( ١٩٦٩ م ) . وتضم  
بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي .

٤ - **نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي : الطبعة الأولى ، بيروت ،**  
١٣٨٩ هـ ( ١٩٦٩ م ) ؛ الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ  
( ١٩٧٥ م ) ؛ الطبعة الثالثة : دمشق ، ١٣٩٩ هـ .

٥ - **الحضارة الاسلامية في الأندلس : بيروت ، ١٣٨٩ هـ ( ١٩٦٩ م ) .**

٦ - **تاريخ الموسيقى الأندلسية : بيروت ، ١٣٨٩ هـ ( ١٩٦٩ م ) .**

٧ - **الدكتوراه ( بالانجليزية ) عن : « العلاقات الدبلوماسية بين**  
الأندلس وأوروبا الغربية حتى نهاية الخلافة » :

**ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE Umayyad PERIOD, 1390 ( 1970 ).**

٨ - **التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة :**  
٩٢ - ٨٩٧ هـ ( ٧١١ - ١٤٩٢ م ) ، دمشق ، ١٣٩٦ هـ  
( ١٩٧٦ م ) .

٩ - **جوانب من الحضارة الاسلامية : دمشق ١٣٩٩ هـ ( ١٩٧٩ م ) .**

١٠ - **مع الأندلس .. لقاء ودعاء : دمشق ١٣٩٩ هـ ( ١٩٧٩ م ) .**

١١ - **بحث بالانجليزية :**

• **Intemarrriage between Andalusia and Nothern Spain in the Umayyad period . , THE ISLAMIC QUARTERLY, London, Vol. XI, Nos, 1 - 2, 1387 ( 1966 ).**

**تشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .**

١٢ - نقد ( Review ) بالانجليزية ، لكتاب :

A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN, W. Montgomery Watt  
( Islamic Survey 4 ), EUP., 1965. In « THE ISLAMIC  
QUARTERLY », Vol. X, Nos. 3 - 4, 1386 ( 1966 ).

نشر ( النقد ) باللغة العربية ضمن المجموعة الأولى من  
اندلسيات .

١٣ - بحث بالانجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة  
الاندلسي ( ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي ) :

« At - Turtushi The Andalusian traveller, and his Meeting  
with Pope John XII, » THE ISLAMIC QUARTERLY,  
Vol XI, Nos. 3 - 4, 1387 ( 1967 ).

نشر باللغة الإيطالية في مجلة :

RIVISTA STORICA ITALIANA, NAPOLI, ANNO LXXIX  
FASC. 1, 1967, pp. 164 - 73.

١٤ - بحث « القضاء ودراسته في الأندلس » : نشر في العدد الأول  
( ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م ) من مجلة كلية الإمام الأعظم ( بغداد ) .

١٥ - بحث « الكتب والمكتبات في الأندلس » : نشر في العدد الرابع  
( ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م ) من مجلة كلية الدراسات الإسلامية  
( بغداد ) .

١٦ - بحث « حول التراث والحضارة » : نشر في العدد الخامس  
( ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م ) من مجلة كلية الدراسات الإسلامية  
( بغداد ) .



١٧ - بحث « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى  
نهاية القرن الرابع الهجري » : تحت النشر في صحيفة معهد  
الدراسات الإسلامية في مدريد .

١٨ - بحث « ابن زيدون السفير الوسيط » ، كتب ل « الاحتفال  
الآلفي لولادة ابن زيدون » ( ٣٩٣ - ٤٦٣ هـ ) : في الرباط  
( المغرب ) في ١٧ تشرين الأول ( أكتوبر ) ١٩٧٥ . وتقوم  
بنشره وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ( المغرب ) .